تفسير سورة القيامة

وهى مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

ربع ﴿ لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ ۝١ وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ ۝٢ أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُ ۝٣ بَلَىٰ قَادِرِينَ عَلَىٰ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُ ۝٤ بَلْ يُرِيدُ الْإِنسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ ۝٥ يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ ۝٦ فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ ۝٧ وَخَسَفَ الْقَمَرُ ۝٨ وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ۝٩ يَقُولُ الْإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ ۝١٠ كَلَّا لَا وَزَرَ ۝١١ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ ۝١٢ يُنَبَّأُ الْإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ۝١٣ بَلِ الْإِنسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ۝١٤ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ ۝١٥ ﴾

قد تقدم غير مرة أن المقسم عليه متى كان منتفياً ، جاز الإتيان بلا قبل القسم لتأكيد النفى . والمقسوم عليه هاهنا هو إثبات الميعاد ، والرد على ما يزعمه الجهلة من العباد من عدم بَعث الأجساد ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ لا أُقسِمُ بيَوْمِ القِيَامَةِ . ولا أُقسِمُ بالنفْسِ اللوَّامَةِ ﴾ ،قال الحسن : أقسم بيوم القيامة ولم يقسم بالنفس اللوامة . وقال قتادة : بل أقسم بهما جميعاً . والصحيح أنه أقسم بهما جميعاً كما قاله قتادة رحمه الله ، وهو المروى عن ابن عباس ، وسعيد بن جبير ، واختاره ابن جرير.

فأما يوم القيامة فمعروف، وأما النفس اللوامة ، فقال الحسن البصرى فى هذه الآية : إن المؤمن ــ والله ــ ما نراه إلا يلوم نفسه : ما أردت بكلمتى ؟ ما أردت بأكلتى ؟ ما أردت بحديث نفسى ؟ وإن الفاجر يمضى قُدُما ما يعاتب نفسه .وقال جُوَيْبِر : بلغنا عن الحسن أنه قال فى قوله : ﴿ ولا أُقسِمُ بالنفْسِ اللوَّامَةِ ﴾ ، قال : ليس أحد من أهل السموات والأرض إلا يلوم نفسه يوم القيامة. وقال سعيد بن جبير: تلوم على الخير والشر .وقال مجاهد: تندم على ما فات وتلوم عليه.وقال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس : اللوامة : المذمومة .وقال قتادة : ﴿ اللوَّامَةِ﴾: الفاجرة . قال ابن جرير : وكل هذه الأقوال متقاربة بالمعنى ، والأشبه بظاهر التنزيل أنها التى تلوم صاحبها على الخير والشر ،وتندم على ما فات .

وقوله : ﴿ أيَحْسَبُ الإنسَانُ أن لن نَجْمَعَ عِظَامَهُ ﴾ أى : يوم القيامة ، أيظن أنا لا نقدر على إعادة عظامه وجمعها من أماكنها المتفرقة؟ ﴿ بَلَىٰ قَادِرِينَ عَلَىٰ أن نُسَوِّيَ بَنَانَهُ ﴾ قال ابن عباس: أن نجعله خُفًا أو حافراً . وكذا قال مجاهد ، وعكرمة ،والحسن ، وقتادة ، والضحاك، وابن جرير . ووجَّهه ابنُ جرير بأنه تعالى لو شاء لجعل ذلك فى الدنيا. والظاهر من الآية أن قوله: ﴿ قَادِرِينَ ﴾ حال من قوله: ﴿نَجْمَعَ﴾ أى : أيظن الإنسان أنا لا نجمع عظامه ؟ بل سنجمعها قادرين على أن نُسَوِّى بنانه ، أى : قدرتنا صالحة لجمعها، ولو شئنا لبعثناه أزيد مما كان ، فنجعل بنانه ــ وهى أطراف أصابعه ــ مستوية. وهذا معنى قول ابن قتيبة ، والزجاج .

وقوله : ﴿ بَلْ يُرِيدُ الإنسَانُ لِيَفْجُرَ أمَامَهُ ﴾ قال ابن عباس: يعنى يمضى قدما . وقال: يعنى : الأمل،

يقول الإنسان : أعمل ثم أتوب قبل يوم القيامة ، ويقال : هو الكفر بالحق بين يدى القيامة . وقال مجاهد : ﴿ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ ﴾ : يمضى أمامه راكبا رأسه . وقال الحسن : لا يلقى ابنُ آدم إلا تنزع نفسه إلى معصية الله قُدُما قُدُما ، إلا من عصمه الله . ورُوى عن عكرمة ، وسعيد بن جبير ، وغير واحد من السلف : هو الذى يَعجَل الذنوبَ ويُسوِّف التوبة . وقال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس : هو الكافر يكذب بيوم الحساب . وكذا قال ابن زيد، وهذا هو الأظهر من المراد ؛ ولهذا قال بعده : ﴿ يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ ﴾ ؟ أى : يقول متى يكون يوم القيامة ؟ وإنما سؤاله سؤال استبعاد لوقوعه ، وتكذيب لوجوده ، كما قال تعالى : ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ . قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ﴾ [سبا:٢٩، ٣٠] .

وقال تعالى هاهنا: ﴿ فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ ﴾ ،قال أبو عمرو بن العلاء :﴿ بَرِقَ﴾ بكسر الراء، أى :حار. وهذا الذى قاله شبيه بقوله تعالى: ﴿ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ﴾ [إبراهيم:٤٣] ، بل ينظرون من الفزع هكذا وهكذا ، لا يستقر لهم بصر على شىء ؛ من شدة الرعب .وقرأ آخرون : « بَرَقَ » بالفتح ، وهو قريب فى المعنى من الأول . والمقصود: أن الأبصار تنبهر يوم القيامة وتخشع وتحار وتذل من شدة الأهوال ، ومن عظم ما تشاهده يوم القيامة من الأمور .

وقوله :﴿ وَخَسَفَ الْقَمَرُ ﴾ أى : ذهب ضوؤه ، ﴿ وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ﴾ قال مجاهد : كُوِّرا. وقرأ ابن زيد عند تفسير هذه الآية : ﴿ إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ . وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ ﴾ [التكوير:١، ٢] ورُوى عن ابن مسعود أنه قرأ : « وجُمع بين الشمس والقمر » . وقوله : ﴿ يَقُولُ الْإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ ﴾ أى : إذا عاين ابنُ آدم هذه الأهوال يوم القيامة ، حينئذ يريد أن يفر ويقول : أين المفر ؟ أى : هل من ملجأ أو موئل ؟ قال الله تعالى : ﴿كَلَّا لَا وَزَرَ. إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ ﴾ . قال ابن مسعود ، وابن عباس ، وسعيد بن جبير، وغير واحد من السلف : أى لا نجاة .وهذه كقوله : ﴿ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ﴾ [الشورى:٤٧] أى : ليس لكم مكان تتنكرون فيه ، وكذا قال هاهنا :﴿ لَا وَزَرَ ﴾ أى : ليس لكم مكان تعتصمون فيه ؛ ولهذا قال : ﴿ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ ﴾ أى : المرجع والمصير .

ثم قال تعالى :﴿ يُنَبَّأُ الْإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴾ أى : يخبر بجميع أعماله قديمها وحديثها ، أولها وآخرها ، صغيرها وكبيرها، كما قال تعالى :﴿ وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ [الكهف:٤٩]. وهكذا قال هاهنا : ﴿ بَلِ الْإِنسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ . وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ ﴾ أى : هو شهيد على نفسه ،عالم بما فعله ولو اعتذر وأنكر، كما قال تعالى : ﴿ اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾ [الإسراء:١٤] . قال ابن عباس : ﴿ بَلِ الْإِنسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ﴾ يقول : سمعُه وبصرُه ويداه ورجلاه وجوارحُه .وقال قتادة : شاهد على نفسه . وفى رواية قال : إذا شئت ـ والله ـ رأيته بصيرا بعيوب الناس وذنوبهم غافلا عن ذنوبه ، وكان يقال : إن فى الإنجيل مكتوبا : يا ابن آدم ، تُبصر القَذَاة فى عين أخيك ، وتترك الجذع فى عينك لا تبصره . وقال مجاهد : ﴿ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ ﴾ : ولو جادل عنها فهو بصير عليها . وقال قتادة : ﴿ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ ﴾ : ولو اعتذر يومئذ بباطل لا يقبل منه. وقال السدى : ﴿ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ ﴾:حجته . وكذا قال ابن زيد، والحسن البصرى ، وغيرهم . واختاره ابن جرير . وقال ابن عباس : ﴿ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ ﴾ : لو ألقى ثيابه . والصحيح قول مجاهد وأصحابه ، كقوله : ﴿ ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ [الأنعام:٢٣] ، وكقوله : ﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ

جميعاً فيحلفون له كما يحلفون لكم ويحسبون أنهم على شيء ألا إنهم هم الكاذبون ﴾ [المجادلة:١٨] .

﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْءَانَهُ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴿١٩﴾ كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ﴿٢٠﴾ وَتَذَرُونَ ٱلْءَاخِرَةَ ﴿٢١﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ﴿٢٤﴾ تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴿٢٥﴾ ﴾

هذا تعليم من الله عز وجل لرسوله ﷺ فى كيفية تلقيه الوحى من الملك ، فإنه كان يبادر إلى أخذه ، ويسابقُ المَلَكَ فى قراءته ، فأمره الله عز وجل إذا جاءه الملك بالوحى أن يستمع له ، وتكفل له أن يجمعه فى صدره ، وأن ييسره لأدائه على الوجه الذى ألقاه إليه ، وأن يبينه له ويفسره ويوضحه. فالحالة الأولى جمعُه فى صدره ، والثانية تلاوته ، والثالثة تفسيره وإيضاح معناه ؛ ولهذا قال : ﴿ لا تُحَرِّكْ به لسانَكَ لتَعْجَلَ به ﴾ أى : بالقرآن ، كما قال : ﴿ ولا تَعْجَلْ بالقُرآنِ من قَبْلِ أن يُقْضَىٰ إليك وحيُه وقل ربِّ زدني علمًا ﴾ [طه:١١٤].

ثم قال : ﴿ إنَّ علَيْنا جَمْعَه ﴾ أى : فى صدرك ، ﴿وقُرْآنَهُ ﴾ أى : أن تقرأه ، ﴿ فإذا قرأناهُ ﴾ أى : إذا تلاه عليك الملك عن الله عز وجل ،﴿ فاتَّبِعْ قُرْآنَه ﴾ أى :فاستمع له ، ثم اقرأه كما أقراك، ﴿ ثُمَّ إنَّ علَيْنا بَيانَهُ ﴾ أى : بعد حفظه وتلاوته نبينه لك ونوضحه ، ونلهمك معناه على ما أردنا وشرعنا . وروى الإمام أحمد : عن ابن عباس قال : كان رسول الله ﷺ يعالج من التنزيل شدة فكان يحرك شفتيه. قال : فقال لى ابن عباس : أنا أحرك شفتى كما كان رسول الله ﷺ يحرك شفتيه . وقال لى سعيد : وأنا أحرك شفتى كما رأيت ابن عباس يحرك شفتيه ـ فأنزل الله عز وجل: ﴿ لا تُحَرِّكْ به لسانَكَ لتَعْجَلَ بِه . إنَّ عليْنَا جمْعَهُ وقُرْآنَهُ ﴾، قال : جمعه فى صدرك، ثم تقرأه ، ﴿ فإذا قرأناهُ فاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ﴾ : فاستمع له وأنصت، ﴿ ثُمَّ إنَّ علَيْنا بَيانَهُ ﴾. فكان بعد ذلك إذا انطلق جبريل قرأه كما أقرأه. وقد رواه البخارى ومسلم، ولفظ البخارى: فكان إذا أتاه جبريل أطرق، فإذا ذهب قرأه كما وعده الله عز وجل(١) . وهكذا قال الشعبى، والحسن البصرى، وقتادة، ومجاهد، والضحاك، وغير واحد: إن هذه الآية نزلت فى ذلك. وقد روى ابن جرير من طريق العوفى، عن ابن عباس: ﴿ لا تُحَرِّكْ به لسانَكَ لتَعْجَلَ به﴾ قال: كان لا يفتر من القراءة مخافة أن ينساه، فقال الله: ﴿ لا تُحَرِّكْ به لسانَكَ لتَعْجَلَ به . إنَّ علَيْنَا ﴾ أن نجمعه لك ﴿وقُرْآنَهُ﴾: أن نقرئك فلا تنسى. وقال ابن عباس وعطية العوفى: ﴿ثُمَّ إنَّ علَيْنَا بَيانَهُ ﴾: تبيين حلاله وحرامه. وكذا قال قتادة.

وقوله :﴿ كلاَّ بَلْ تُحِبُّونَ العَاجِلَةَ. وتَذَرُونَ الآخِرَةَ ﴾ أى : إنما يحملهم على التكذيب بيوم القيامة ومخالفة ما أنزل الله عز وجل على رسوله ﷺ من الوحى الحق والقرآن العظيم : أنهم إنما همتهم إلى الدار الدنيا العاجلة ، وهم لاهون متشاغلون عن الآخرة .

ثم قال تعالى : ﴿ وُجوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ ﴾ من النضارة ، أى حسنة بَهِيَّة مشرقة مسرورة ، ﴿ إلى رَبِّها نَاظِرَةٌ ﴾ أى : تراه عيانا ، كما رواه البخارى ، فى صحيحه : « إنكم سترون ربكم عيَانا »(٢) . وقد

(١) المسند (٣١٩١) والبخارى (٤٩٢٧ ـ ٤٩٢٨) ومسلم (١٤٧/٤٤٨) .
(٢) البخارى (٤٨٥ ، ٥٥٤ ، ٥٧٣) .

ثبتت رؤية المؤمنين لله عز وجل فى الدار الآخرة فى الأحاديث الصحاح ، من طرق متواترة عند أئمة الحديث ، لا يمكن دفعها ولا منعها ؛ لحديث أبى سعيد وأبى هريرة ـ وما فى الصحيحين : أن ناسا قالوا : يا رسول الله ، هل نرى ربنا يوم القيامة ؟ فقال : «هل تُضَارُّون فى رؤية الشمس والقمر ليس دونهما سَحَاب ؟ » قالوا: لا. قال: « فإنكم تَرَوْنَ ربكم كذلك» (١) . وفى الصحيحين عن جرير قال: نظر رسول الله ﷺ إلى القمر ليلة البدر فقال : « إنكم تَرَوْن ربكم كما تَرَوْن هذا القمر ، فإن استطعتم الا تُغلَبوا على صلاة قبل طلوع الشمس ولا قبل غروبها فافعلوا » (٢) . وفى الصحيحين عن أبى موسى قال: قال رسول الله ﷺ : « جَنَّتان من ذهب آنيتهما وما فيهما، وجنتان من فضة آنيتهما وما فيهما ، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى الله إلا رِدَاء الكبرياء على وجهه فى جنة عدن » (٣) . وفى أفراد مسلم ، عن صهيب ، عن النبى ﷺ قال: «إذا دخل أهلُ الجنة الجنة » قال : « يقول الله تعالى: تريدون شيئاً أزيدكم ؟ فيقولون: ألم تُبيض وجوهنا ؟ ألم تدخلنا الجنة وتنجنا من النار ؟ » قال: « فيكشف الحجاب ، فما أعطوا شيئا أحب إليهم من النظر إلى ربهم، وهى الزيادة ». ثم تلا هذه الآية: ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾ [يونس : ٢٦] (٤) . وفى أفراد مسلم ، عن جابر فى حديثه: «إن الله يَتَجلَّى للمؤمنين يضحك » (٥) ـ يعنى فى عرصات القيامة ، ففى هذه الأحاديث أن المؤمنين ينظرون إلى ربهم عز وجل فى العرصات ، وفى روضات الجنات . ولولا خشية الإطالة لأوردنا الأحاديث بطرقها وألفاظها من الصحاح والحسان والمسانيد والسنن، ولكن ذكرنا ذلك مفرقا فى مواضعَ من هذا التفسير، وبالله التوفيق. وهذا بحمد الله مجمع عليه بين الصحابة والتابعين وسلف هذه الأمة، كما هو متفق عليه بين أئمة الإسلام . وهُدَاة الأنام .

وقوله : ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ . تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴾ : هذه وجوه الفجار تكون يوم القيامة باسرة . قال قتادة: كالحة. وقال السدى : تغير ألوانها . وقال ابن زيد : ﴿بَاسِرَةٌ ﴾ أى : عابسة . ﴿ تَظُنُّ ﴾ أى: تستيقن، ﴿ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴾ قال مجاهد: داهية. وقال قتادة: شر . وقال السدى : تستيقن أنها هالكة. وقال ابن زيد: تظن أن ستدخل النار . وهذا المقام كقوله: ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ﴾ [آل عمران: ١٠٦] ، وكقوله: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ . ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ. وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ . تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ . أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ ﴾ [عبس:٣٨ـ ٤٢]، وكقوله : ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ . عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ. تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ﴾ ، إلى قوله : ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ. لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ. فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴾ [الغاشية:٢ ـ ١٠]، فى أشباه ذلك ممن الآيات والسياقات .

﴿ كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِىَ ۝ وَقِيلَ مَنْ ۜ رَاقٍ ۝ وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ ۝ وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ۝ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ ۝ فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ۝ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ۝ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ ۝ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ۝ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰٓ ۝ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ۝ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِىٍّ يُمْنَىٰ ۝ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ۝ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ

(١) البخارى (٧٤٣٧، ٧٤٣٨) ، ومسلم (١٨٢/٢٩٩) .
(٢) البخارى (٧٤٣٤ ، ٧٤٣٦) ومسلم (٦٣٣ / ٢١١) .
(٣) البخارى (٧٤٤٤) ومسلم (١٨٠/٢٩٦) .
(٤) مسلم (١٨١ /٢٩٧) .
(٥) مسلم (١٩١/٣١٦) .

عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾ ﴾

يخبر تعالى عن حالة الاحتضار وما عنده من الأهوال ـ ثبتنا الله هناك بالقول الثابت ـ فقال تعالى: ﴿ كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ ﴾ ، إن جعلنا ﴿ كلا ﴾ رادعة فمعناها : لست يا ابن آدم تكذب هناك بما أخبرت به، بل صار ذلك عندك عيانا. وإن جعلناها بمعنى (حقا) فظاهر، أي : حقا بلغت التراقي ، أي : انتزعت روحك من جسدك وبلغت تراقيك ، والتراقي : جمع ترقوة ، وهي العظام التي بين ثغرة النحر والعاتق ، كقوله: ﴿ فَلَوْلَا (١) إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ . وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ . وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ . فَلَوْلَا إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ . تَرْجِعُونَهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الواقعة:٨٣ ـ ٨٧]. وهكذا قال هاهنا : ﴿ كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ ﴾ ، والتراقي: جمع ترقوة ، وهي قريبة من الحلقوم. ﴿ وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ ﴾ ؟ قال ابن عباس : أي من راق يرقى ؟ وكذا قال أبو قلابة : ﴿ وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ ﴾ أي : من طبيب شاف . وكذا قال قتادة ، والضحاك ، وابن زيد . وعن ابن عباس في قوله : ﴿ وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ ﴾ قال : التفت عليه الدنيا والآخرة. وكذا قال : آخر يوم من أيام الدنيا ، وأول يوم من أيام الآخرة ، فتلتقى الشدة بالشدة إلا من رحم الله . وقال عكرمة : ﴿ وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ ﴾ : الأمر العظيم بالأمر العظيم . وقال مجاهد: بلاء ببلاء . وقال الحسن البصرى: هما ساقاك إذا التفتا . وفى رواية عنه : ماتت رجلاه فلم تحملاه ، وقد كان عليهما جوالا. وكذا قال السدى ، عن أبي مالك . وفى رواية عن الحسن : هو لفهما في الكفن . وقوله : ﴿ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ ﴾ أي : المرجع والمآب ، وذلك أن الروح ترفع إلى السموات، فيقول الله عز وجل : ردوا عبدى إلى الأرض ، فإنى منها خلقتهم ، وفيها أعيدهم ، ومنها أخرجهم تارة أخرى . كما ورد في حديث البراء الطويل . وقد قال الله تعالى:﴿ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ . ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ ﴾ [الأنعام:٦١،٦٢] .

وقوله :﴿ فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ . وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴾ : هذا إخبار عن الكافر الذى كان في الدار الدنيا مكذبا للحق بقلبه ، متوليا عن العمل بقالبه ، فلا خير فيه باطنا ولا ظاهرا ، ولهذا قال :﴿ فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ . وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ . ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰ أَهْلِهِ يَتَمَطَّىٰ ﴾ أى : جذلان أشرا بطرا كسلانا ، لا همة له ولا عمل ، كما قال : ﴿ وَإِذَا انقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمُ انقَلَبُوا فَكِهِينَ ﴾ [المطففين:٣٤] ، وقال: ﴿ إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا . إِنَّهُ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ﴾ أى: يرجع ، ﴿بَلَىٰ إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا ﴾ [الانشقاق:١٣ـ ١٥]. وقال الضحاك : عن ابن عباس ﴿ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰ أَهْلِهِ يَتَمَطَّىٰ ﴾: أى: يختال. وقال قتادة، وزيد بن أسلم: يتبختر . قال الله تعالى : ﴿ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ . ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴾:وهذا تهديد ووعيد أكيد من الله تعالى للكافر به المتبختر في مشيه، أى : يحق لك أن تمشى هكذا وقد كفرت بخالقك وبارئك، كما يقال فى مثل هذا على سبيل التهكم والتهديد كقوله: ﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴾ [الدخان:٤٩] ،وكقوله:﴿كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ ﴾ [المرسلات:٤٦] ، وكقوله: ﴿فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِ﴾ [الزمر: ١٥] ، وكقوله: ﴿ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ ﴾ [فصلت:٤٠] إلى غير ذلك .

وقوله: ﴿ أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴾ قال السدى: يعنى: لا يبعث. وقال مجاهد، والشافعى ،

(١) فى المخطوطة :« كلا » وهو خطأ واضح .

وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم : يعنى لا يؤمر ولا ينهى .والظاهر أن الآية تعم الحالين ، أى: ليس يترك فى هذه الدنيا مهملا لا يؤمر ولا ينهى ، ولا يترك فى قبره سدى لا يبعث ،بل هو مأمور منهى فى الدنيا ، محشور إلى الله فى الدار الآخرة . والمقصود هنا إثبات المعاد ، والرد على من أنكره من أهل الزيغ والجهل والعناد ، ولهذا قال مستدلا على الإعادة بالبداءة فقال: ﴿ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴾ ؟ أى : أما كان الإنسان نطفة ضعيفة من ماء مهين ، يمنى يراق من الأصلاب فى الأرحام .﴿ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴾ أى : فصار علقة ، ثم مضغة ، ثم شُكِّل ونفخ فيه الروح ، فصار خلقا آخر سَوِياً سليم الأعضاء ، ذكرا أو أنثى بإذن الله وتقديره ؛ ولهذا قال : ﴿ فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنثَىٰ ﴾ . ثم قال: ﴿ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ ﴾ أى: أما هذا الذى أنشأ هذا الخلق السوى من هذه النطفة الضعيفة بقادر على أن يعيده كما بداه ؟ وتناولُ القدرة للإعادة إما بطريق الأولى بالنسبة إلى البداءة ، وإما مساوية على القولين فى قوله: ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾ [الروم:٢٧] . والأول أشهر ، والله أعلم . عن ابن عباس أنه مر بهذه الآية : ﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ ﴾ ؟، قال : سبحانك ؛ فبلى .